

بعض مآثر سعد زغلول للدكتور زكي مبارك

—

امتاز سعد باشا — طيب الله ثراه — بميزات كثيرة جداً منها غزارة العلم وفصاحة اللسان وقوة الشخصية ، وكانت له مآثر كثيرة جداً ، منها المآثر الآتية :

أولاً — استطاع سعد بشخصيته الثمانية أن ينزو ملايين للقلوب بالحب والبغض ، فأجبه ناس إلى حد الجنون وأبغضه ناس إلى حد الحق . ومن عجيب أمره أن الذين أحبه كانوا صادقين والذين أبغضوه كانوا صادقين ، وكانت الوطنية الصحيحة مصدر السواطف التي تفجرت في قلوب أصدقائه وأعدائه . وما أذكر أني عرفت أحداً يبغض سعد باشا حسداً ، لأن سعداً كان أهلاً للظلمة ، وما كان يخطر في بال أحد أن سعداً ينال من سمو المسكاة ما لا يستحق ، وإنما أبغضه مبغضوه وطنيةً كما أحبه محبوه وطنيةً ، وقد جُنَّ أحد أعدائه فأطلق عليه الرصاص ، كما جُنَّ أحد محبيه فودَّع المقل إلى غير رجعة يوم مات

وقد كنت في مطلع الحركة الوطنية من أنصار سعد ، ثم تمردت عليه تمرداً عنيفاً ، فسكتبت في الهجوم عليه ما كتبت وقلت ما قلت وأنا موقن بأنني أخدم وطني بمحاربة ذلك الرجل المسيطر الجبار ، ولم يصدني عنه إلا الائتلاف الذي نعمت به مصر في سنة ١٩٢٦ . فلما قضى نحبه بعد ذلك عرفت أني فقدت باباً من أبواب الثروة الروحية هو المادة في سبيل الوطن بلا ترفق ولا استبقاء

ماذا أريد أن أقول ؟

أريد أن أقول إن سعداً قد استطاع إيقاظ الأفئدة المصرية فلم يمت أحد في عهده بلا روح نائر أو قلب خفاق

كان المصريون لمهد سعد متحزبين بمهاسة وصدق ، ولم يكن فيهم رجل واحد يواجه الشؤون الوطنية بلا اكتراث . فكان لأصدقائه جميعاً ولأعدائه جميعاً أقباس روحانية تشهد بأنهم لمبادئهم أوفياء . وأنصار الوفد وخصوم الوفد من الذين لهم في هذه الأيام قوة ذاتية قد تخرجوا جميعاً في مدرسة الحب ومدرسة البغض لمهد سعد ، وكذلك نفع الرجل أعداءه كما نفع أصدقائه ، وبهذا

صح القول بأنه أجمع الجرات التي سهرت أرواح الجيل الجديد . ثانياً — اتفق لسعد أن يؤدي لثة للمريسة خدمة عظيمة لا يتنبه لقيمتها إلا من برف ما كانت تتعرض له لثة للمرب بعد الحرب الماضية

كان الأعداء كُثروا ، وكانت بدعة القول بأن العناية بالأسلوب ليست إلا حذلقة لا تليق بأبناء العصر الحديث ، وكانت هناك فتنة ينجُم قَرْنها من وقت إلى وقت ، وهي فتنة الرجم بأن اللثة للفضيحة لثة أجنبية وأن اللثة العامية هي لثة المصريين . وقد وُثِدَتْ تلك البلايا وهي في المهد بفضل سعد ، ولكن كيف ؟

كان سعد من أبناء الجيل الماضي ، وهو جيل سليم ، ويشهد بسلامته وطاقته ما نهض به من جلائل الأعمال ، فذلك الجيل هو بطل الثورة على الظلم والاستبداد ، وذلك الجيل هو الذي قاوم طغيان الغرب على الشرق ، وذلك الجيل هو الذي عاون على قوة الشخصية القومية ، وذلك الجيل هو الذي خلق منشآت عظيمة منها الجامعة المصرية

من ذلك الجيل السليم كان سعد ، وكان ذلك الجيل يؤمن بأن اللثة للمريسة هي أكرم ذخائرنا الوطنية ، وكان يرى أن متانة الأسلوب هي العنصر الأول من عناصر البيان

وكذلك يفهم من لم يكن يفهم كيف كان سعد يُعَسِّي نفسه ويمدبها في سبيل الظفر بالأسلوب الرصين

هل تذكر كيف كان سعد ينظم خطابه الرسمية وهو يتوجه إلى جلالة ملك مصر أو إلى الأمة أو إلى النواب والشيوخ ؟ لو صح القول بأن الجهد الشاق يقصر الأجل لقلت

إن عناية سعد باشا بالأسلوب قد نهبته من عمره نحو عشر سنين ، وإلا فكيف جاز أن يموت قبل أن يصل إلى السن التي يموت فيها رجل في مثل هامته العالية وبنياه المتين ؟

إن اهتمام سعد بالأسلوب خلق في القلوب فكرة الحرص على كرامة اللثة للمريسة ، وكان ذلك بداية انهيار جيش الأدفيا ، من الذين كانوا يرون أن من السهل أن يكون للشخص أديباً بدون أن يتفق من عمره سنة واحدة في الاطلاع على ذخائر اللثة للمريسة . ومن حظ مصر أن كان خصوم سعد باشا يرون هذا الرأي ، فكانت جريدة السياسة وجريدة الأواء وجريدة الأخبار تحارب جرائد الوفد بأساليب ظل أثرها باقياً إلى هذه الأيام

لا يقبل أن تُلقي المرأة خطبة وهي في حراسة للنقاب
 رابعاً — كان الجو في أيام سعد مشبكاً بهواء ثقيل هو
 الدعوة إلى عزلة مصر عن الأقطار العربية والإسلامية ، وقد
 انتبه سعد إلى خطر ذلك الهواء فصدّه بمحزم وعنف . ولما وقع
 الزلزال بفلسطين في صيف سنة ١٩٢٧ تبرع سعد بمئة جنيه
 لتكوي الزلزال وتبرع بالرحوم عوض بك عريان المهدي بنسة
 وتسعين جنياً فكانت نكتة لطيفة من نكت الذوق . وعواطف
 سعد من الوجهة العربية والإسلامية كانت عواطف الزعيم الذي
 يؤمن بأن للعروبة والإسلام هما سناد مصر في الشرق
 خامساً — كان سعد أقوى نصير للمواهب الأدبية ، وكان
 ينظر إلى القلم نظر الخوف والرجاء ، ولم يكن يجد المتعة الروحية
 إلا في محاوراة أهل الفكر والبيان

كان سعد يحب أنصاره من الكتّاب فيقرّبهم ويشجّعهم ،
 وكان ينقض خصومه من الكتّاب بنقضاً شديداً ، فلا يأوى
 إلى فراشه إلا بعد أن يطمئن إلى أنه سيقراً في غده ما ينقض
 تحاملهم عليه ، وكان يتقدم بنفسه من حين إلى حين فيخوض
 غمار المارك القلمية بإمضاء مستعار ليشتفي صدره من المتطاولين
 على مقامه الجليل

سادساً — كان سعد من أرباب القلوب ، وتنجلي عظمة
 سعد من هذه الناحية إذا تذكرنا كيف نسي ما كان بينه وبين
 خصومه من الأحقاد السود بعد إذ من الله بنعمة الائتلاف ،
 فقد كان سعد يبكي لفراق عدلي يكن وعبد الخالق ثروت ،
 وكان صدقه في مودة هذين الخصمين من أكرم ما صدر عن
 قلبه السليم

سابعاً — كان لسعد فضل عظيم في تقوية الشخصية
 الحزبية ، وهي أساس لجميع الأعمال الوطنية ، حين تحسُن
 النيات ، وتصفو القنائر ، وتطيب القلوب
 كان سعد رئيس الأمة ، ولكنه لم ينس أبداً أنه رئيس
 الوفد ، فكان يجاهد في تقوية ذاته الحزبية بمزجة فمارة
 وقلب صوّال ، وهو الذي رفض السماح لأحد أنصار الوفد
 بالاعتراض على الحكومة الوفدية في مجلس النواب

وهنا ندرك أن سعداً كان يعرف قيمة المبادئ ، وما كانت
 تجوز عليه الخيلة الطريفة التي تقول بالفرقة بين المبادئ
 والأشخاص ، ولتلي تبيح للرجل أن يخرج على حزبه بحجة أنه

وماضي سعد باشا في صباح يوم كان محرراً في « الوقائع
 المصرية » يشهد بأنه كان من الذين يستهويهم القول الجزل والتعبير
 المصنوع ، وقد لزمته هذه الخصلة طول حياته فكان يرى البلاغة
 ضرباً من الفن الجميل لا يصل إليه الرجل إلا بعد أن يتمرس
 بأساليب الفطاحل من القدماء

وكان سعد خطيباً من الطراز الأول بشهادة الأكثرين ،
 وقد حضرت له خطبتين إحداهما في بيت البكري بعد رجوعه
 من باريس عقب انفضاض مؤتمر الصلح ، والثانية في مصر الجديدة
 أيام ثورته على الرحوم عدلي يكن ، ثم حضرت له خطبة نالته
 في مجلس الشيوخ يوم احتل الإنجليز الجمارك بعد مقتل المرردار
 في سنة ١٩٢٤ ، وفي هذه الخطبة الثلاث لم أصدق أن منزلته
 الخطابية تساوي شهرته الشعبية ، ومع هذا لا يمكن التناهي عن
 سعد الخطيب ، فقد كان أقدر الناس على خلق الانقلابات ،
 وخطبته بشراً أيام « وزارة الثقة » هي مصدر التقلبات السياسية
 التي ظلت تقلل حياة مصر إلى هذا اليوم . وعلى الرغم من أنه
 لم يرشني خطيباً فما أزال أذكر كيف كان يخرج الحروف بأصوات
 وثبرات هي للشاهد على أنه كان في الخطابة من العفانين

ثم حضرت خطبه مرة رابعة وخامسة فلم يتحسّن رأيي فيه ،
 فهل كان للمداوة السياسية تأثير في حكي على ذلك الخطيب الذي
 بهر الجماهير زمناً غير قليل ؟

المهم أن نسجل أن سعد باشا طون معاونة جدية على صيانة
 اللغة العربية من عبث الجاهلين بأسول الأدب وأسرار البيان
 ثالثاً — ترقى سيد بالتقاليد حتى لم يكن الحكم بأنه كان

يكره الانقلابات الاجتماعية ، وهو الذي صدنا عن لبس القبعات
 سنة ١٩٢٧ ، ولولا مقاومته ومقاومة الأمير عمر طوسن لجرينا
 في الطريق الذي جرى فيه الأتراك . وهذه المسألة تبدو في صورة
 المسائل للشكالية ، ولكن لها جذوراً أعمق من ذلك ، فلو أننا كنا
 جارين الأتراك في ترك الطرايش لكان من الجائر أن نجاريهم
 في كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية ، ولكان من الجائر أن
 نسايرهم في اضطلاع رجال الدين ، وهذا وذاك من الأفلاط التي
 وقع فيها الأتراك مجذوبين بتيار الانقلاب

كان سعد من المحافظين ولم يكن من الرجعيين ، وكان على
 محافظته حر للفكر إلى أبعد الحدود ، وهو الذي مدّ يده فترع
 نقاب امرأة وقتت تحطب بين يديه ، لأنه شعر بأن منطق المصر

حوار في الحرب

عبرة الزمن

للأستاذ محمد عرفة

—*—

انجح في الحياة ولا تفشل ، وتوخ أسباب النجاح ، وتوق أسباب الفشل ، فإنك إن تنجح عد الناس ذنوبك حسنة ، وإن تفشل عد الناس محاسنك مساوية

هذه فرنا كانت في رأى كثير من الناس أم اللذيات ، وما من حضارة إلا وهي مقتبسة منها ، وما من خير إلا إليها مرجعه ؛ فلما اجتاحتها الألمان ، وسقطت تحت كلكل القوة ، انقلب مدح الناس ذمًا ؛ والفضائل التي كانوا يعدونها لها صارت رذائل ...

كانت ترى أن يربى الفرد لنفسه ، ولا يعطى للدولة إلا ما فضل عنه ، فكانوا يرون ذلك معها ، ولا يرون أن يربى الفرد للأمة كما يربى الألمان

وكانت ترى الحرية في أوج مداها ، فكانوا يرون ذلك معها ولا يرون أن أناسًا قد تصدم الحرية كما تصلح قومًا آخرين وكانت ترى إشباع الشهوات ، والأخذ بأكبر قسط من لذات الحياة ، فكانوا يرددون هذا ، ويرون أن الأخذ بضد ذلك سجن للحرية ، وشقاء للنفس والمجتمع

وكانت ترى تضيق حدود النسل ، فكانوا يرون أن الحق معها وأن المرء لم يخلق ليكون تاملاً غير مأجور لأولاده وأسرته وكانت وكانوا إلى ما شاء الله من هذه الآراء . فلما هزمت في الحياة صار هذا الجلال صناراً ، وذلك للنور ظلاماً ، وانقلبت كل هذه المحاسن والحامد آثاماً وعيوباً في أقل من طرفة عين . ما هذا الذي بدل هذا الحسن ، وشوّه ذاك الجلال ، وأحال

الأمر إلى أضدادها ؟ ... إنه للفشل ، وقاتل الله الفشل

والناس من يلق خيراً قائلون له

ما يفتنى ولأمّ المنطىء المبل

محمد عرفة

من أنصار الحق ، ومعنى هذا الكلام أن الرجل يجب عليه أن يتصر حظه ظالماً أو مظلوماً ، وأن يؤازره في جميع الأحوال ، ولو اعتقد أنه على ضلال .

وبهذا الحزم للصارم نجح سعد ، ولعله كان يفهم جيداً أن المصو في الحزب كالجندى في الكتيبة ، فما يجوز له أن يتحدث في تعديل خطط القتال

أما بعد ، فهذه لمحات من مآثر سعد ، وما أريد بها التكفير عن الأعيام التي قضيتها في الهجوم عليه ، فما كان لي من غاية ولا غرض في ذلك الهجوم الذي شبت ناره في جريدة الأفكار وجريدة المحروسة وجريدة اللواء ؛ وإنما كفت جندياً من جنود الحزب الوطنى ، وكنا ترى سادقين أن هدم سعد من أوجب القروض

فإن قيل إن جهادنا في تحطيم سعد قد ذهب أدرج الرياح ، فأننا أجب بأن هذا من حظ مصر ومن حظ الحزب الوطنى ، لأن الحزب الوطنى يسره أن يكون في مصر رجال ترضى عنهم الأمة وتقيم لهم التماثيل

الحزب الوطنى ينتظر خصوماً من طراز سعد ، خصوصاً أقوياء لا تهدمهم معاول الحق ، وما أعظم الرجل الذى تعجز عن هدمه معاول الحق

وهل كان عبد العزيز جاويز على خطأ في محاربة سعد زغلول؟ وهل كان مصطفى الشورى آثمًا في تنفيذ المطالب الوفدية؟ إن انتصار الوفد في عهد سعد وفي عهد النحاس لن ينسينا مبادئنا ، ونحن مع ذلك نرحب بانتصار الوفد ونرجو أن يطول بيننا النزاع والشقاق ، لأننا نؤمن بأن السلام ضرب من الموت كانت لنا مبادئ وكانت لنا ميادين قتال

فتى يرجع ذلك للمهد ، للمهد الذى كنا نشجر فيه حول المقاصد الوطنية ونحن في غياهب الاعتقال ؟

أيقضى علينا أن نعيش في أمان فلا نعرف غير مساوئة الكائين والباحثين ؟

ولكن لا بأس ، فما كان النقد الأدبى إلا خدمة وطنية ، لأن الأدب هو سفير مصر في الشرق

وسلام الله على شهداء الوطنية في جميع الصفوف .

ذكى مبارك